ويقول إن ما نلاحظه من حنو المرأة على المرضى والضعفاء وعدم قدرة الرجل على ذلك، إنما مرده إلى أن المرأة ضعيفة الخيال، ولذا لا تحس بعذاب من هو بين يديها، وتقف على المريض والضعيف وقوفاً نظنه حنواً وتضحية ولكنه في الحقيقة بلادة وعدم إحساس [52]. ويأخذ العقاد في سياحة ثقافية يستعرض فيها كل ما للمرأة من صفات حميدة ويأخذ في تأويلها وحرفها عن ظاهرها إلى باطن دلالي ينطوي على حرمانها من أي وصف إيجابي[53] حتى إذا جاء لصفة الجمال عز عليه أن يترك المرأة تسعد بهذا الوصف وراح يقول: (إن الجمال ليس بالمزية المسلم بها للمرأة كل التسليم ولا بالحكر الخالص لها المحرم على غيرها. فهذا شوبنهور مثلاً ينكره عليها بتة، ويزعم أن المرأة... ذميمة قبيحة، فإذا تخيلناها حسناء فاتنة فهي الغريزة الجنسية التي تزيغ بصرنا... فتلهينا عن عيوب خلقها كما يلهينا الجوع والظمأ عن عيوب الطعام الخبيث والشراب الكدر، وداروين يميل إلى تفضيل جمال الرجل على جمال المرأة، ويقيس ذلك على عطل الإناث وروعة منظر الذكور في كثير من المخلوقات ـ (ص 163).

ولا يدع العقاد الأمر يقف عند مجرد إبداء الرأي والشهادة، ولكنه يعزز كلام الفحول بأن يشهد لهم بالسمو والرفعة في سلم الذكور والعقول، فيقول: (ومقام شوبنهور في الفلسفة ومقام داروين في العلم كلاهما في أعلى مكان).

طبعا لا بد أن يكونا في (أعلى مكان) لكي يتساميا على الجسد الفطري ولكي يكونا قادرين على المنح والمنع وتقرير مصائر الأجناس والأنواع، ولكي يطرب العقاد بوصفه فحلاً ثقافياً لما قاله شهود الحضارة الذكورية.

(52) العقاد: مطالعات في الكتب والحياة 165، دار الكتاب العربي، بيروت 1966.
(53) السابق (فصل صفات المرأة) 161 وما بعدها.